مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد ٢٠ ، الخريف ١٣٩٠هـ.ش/ ٢٠١١م صص٦١-٨٤

ظاهرة الغاب في الشعر العربي الرومانسي

امير مقدم متقي[١]

الملخص

بعدما تأثّرَ الشعراء العرب بالمدرسة الرومانسية، راحوا ينتهجون هذا المنهج الرومانسي؛ فأقبلوا على الطبيعة و تعلّقوا بها و رَكنُوا إلى أحضانها و استشعروا حنانها و سبّحوا بجمالها و روعتها و ناجوها كأمّ حانية يلتمسون العزاء لديها، كما اتّخذوها و مظاهرها –شأن الرومانسيين–ملاذاً للسعادة الانسانية و مغنىً للطمأنينة و راحةً من متاعب الحياة.

و من مظاهر هذه الطبيعة و الذي يتكرّرُ كثيراً على لسانهم و تُردّده أشعارهم، الغاب و هو ما نراه في أشعار بعضهم يُصبح أحياناً ذريعةً لتحطيم الثنائيّة و الانطلاق إلى المطلق اللامحدود و احياناً أخرى رمزاً للرجوع إلى بساطة الحياة البدائية قبل أن تعبث بها يدُ التركيب و التشويه و التعقيد .و قد يكون رمزاً إلى مكانٍ مقدسٍ للتعري من الحجب الكاذبة و التحرّر من كل القيود الإنسانية أو موطنٍ للحبّ الطاهر.

و من ثَمّ أنهم توصّلوا إلى جعلِ الغاب مقياساً للكمال الانساني و طلبوا إلى الإنسان أن يكون مثلَه إذا أراد الفكاك من القيود المصطنعة للمجتمع الذي تمنع الانطلاقَ فيه العاداتُ و التقاليد و إذا أراد أن يكون انساناً صحيحاً بمشاعره، كاملاً في اخلاقه.

و هكذا نجدُ عندهم من وراء الحديث عن الغاب، نوعاً من السعي إلى الخلود عن طريق الفلسفة الروحانية المعتمدة على البساطة و العيش في الغاب و الاتخاذ بنغمات الكون الأزلية.

الكلمات الرئيسية: الشعر العربي المعاصر، ابوالقاشم الشابي، الرومانسيّة، شعراء المهجر

---

١. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة آذربيجان لإعداد المعلمين A.moghaddam @ Azaruniv.edu

Archive of SID

www.SID.ir

المقدمة

لا شك أن اتساع قاعدة الثقافة الغربية و اطلاع الشعراء العرب على آثار الحركة الرومانسية المجددة في اروبا كانا من العوامل الفعّالة في التعجيل بظهور طلائع الرومانسية العربية في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي (الرابع عشر الهجري)(هدارة،١٩٩٤،ص٢٢).

بعد أن تأثّر الشعراء العرب بالمدرسة الرومانسية، راحوا ينتهجون هذا المنهج الرومانسي، فوصفوا الطبيعة –شأن الشعراء الرومانسيين– و تغوّروا في أعماقها و تجلّت في وصفهم لها مشاركتهم الوجدانية و عاطفتهم المتعمّقة، فكانوا يجدون في المظاهر الطبيعية صوراً من انفسهم فيقارنون بين هذه المظاهر و عواطفهم و نوازعهم و مختلف أحوالهم، فشخصوا بذلك الطبيعة حتى صارت أليفتهم، يخاطبونها و تخاطبهم و يرمزون لصورها بحالات نفوسهم، فهم و الطبيعة و مظاهرها شئٌ واحد و إن اختلفت الأسماء .

و هناك من بين هذه المظاهر الطبيعية بعضُها يلفت نظرَ القارئ ؛منها **«الغاب»** و هو من الكلمات التي تتكرّر على لسان بعضهم و تُردّدها اشعارُهم .و لكن بم يرمز الشعراء بهذه الكلمة ؟ و لماذا يمجّدون الغاب و يُقدّسونه و هل يقصدون وراء هذه الكلمة معنىً واحداً؟ و هل الغاب و الدعوة إليه دعوةٌ إلى الرجوع إلى الطبيعة و العيش فيها، أم دعوةٌ إلى البساطة البدائية للحياة ؟ و هل العودة إلى بساطة الحياة أمر ممكن؟

هذه أسئلة تفرض نفسها لكي نجيب عنها .ولكن قبل أن نتناول كلمة الغاب في الشعر العربي الرومانسي، فلابدّ لنا أن ندرس منشأ هذه الكلمة و مردَّ فكرتها .

إذا أمعنا النظر في الأدب العربي المعاصر، رأينا فكرة استخدام هذه الكلمة ترجع إلى تيّار الرومانسية، لأن أصحاب هذه المدرسه كانوا يذهبون إلى أنّ تحرّر الانسان رهينٌ بعودته إلى الطبيعة في نقائها الأول و استكناه صفائها البدائي و ما يوحي به هذه و ذاك من نظم و سلوك .فأصبحت نزعتهم –مستلهمين الطبيعة في النظم السياسية و ضوابط الاجتماع– نزعةً ثائرة بكل النظم و التقاليد في سبيل نظم أسمى و تقاليد أصحّ، لأن القيود التي تمنع حرية الإنسان ليست في الطبيعة. و ما كبّل الإنسانَ و قيّده في المجتمع هو مِن صنع الإنسان و عمل ارادته و هذا النهوض للحرية هو العبء الكبير الذي احتمله الرومانسيون مع من احتمله من الفلاسفة و المصلحين بل لقد كانوا هم أنفسهم فيهم الفلاسفة و المصلحون،و أنت تقرأ وقائع حياتهم فترى القول يُصدق فيهم العمل أو إن شئت فعواطفهم و أعمق مشاعرهم تصدقها المعتقدات

Archive of SID

www.SID.ir

الاجتماعية و الآراء التي أُوذوا من جراءها إلى حد كبير (مرزوق، الرومانتيكية و الواقعية في الأدب، ص ٢٥-٢٦). و من ثمّ فقد كان الأدب الرومانسي، أدباً ثائراً يهتمّ بمصالح الفرد و يعتدُّ بـــه و ينتصر له ضدّ مظالم المجتمع.

هذا و إن الرومانسيين لم يسلكوا جميعاً هذا النحو مـــن الثـــورة بـــالنظم الـــسياسية و الاجتماعية، لأنهم آمنوا بأنّ التحرر السياسي جزءٌ من تحرّر انساني أعظم هو التحرر الفكري و الوجداني، أو إن شئت فالتحرر (الداخلي) الذي يخلص الانسان من عقابيل الموروثات الفكرية و النفسية التي اعتدوها عقبة العقبات في سبيل التحرر بمعناه الصحيح .

و كانت الطبيعة سبيلهم إلى هذا التحرر، فهي سبيل العصر في كل فلـــسفة أو منطـــق صحيح، و كما أنّ الفلاسفة راحوا يستلهمونها في النظم السياسية و ضوابط الاجتماع، فقـــد وقف الرومانسيون أنفسهم على استيحاء منطق هذه الطبيعه في الـــسلوك و عامّـــة القـــيم و المعتقدات، لأنهم آمنوا بنظم علوية (Transcendental Order) أرادها الطبيعة أو أرادهـــا الله، و هم بما أوتوا من ملكات التعاطف و الخيال، مُوكّلون باستلهام هـــذه الإرادة أو هـــذا المنطق العلويّ، ففيه خلاص البشرية مما يَحيق بها من النظم العَفنة و تقاليد الخرافة و مواريـــث الجهل و الغباء .يقول (وردزورث) (William Wordsworth - ١٧٧٠-١٨٥٠ م): « إنّ الشاعر يوائم —و لابدّ- بين الإنسان و الطبيعة، فعقل الإنسان مرآة لأهمّ خصائص الطبيعة و أعظمها» (حلمي مرزوق، الرومانتيكية و الواقعية في الأدب، ص٣٩-٤٠)

وانطلاقاً من هذا، فإنّ الشعراء الرومانسيين، فقد ابتعدوا عن شعر المناسبات و المـــدائح و الأهاجي و التصقوا بالطبيعة و مظاهرها التصاقاً حميمةً كأم حانية،فناجوها و تغنّوا بجمالهـــا و توالجوا معها إلى درجـــة الحلـــول الفـــني الخـــالص (مؤســـسة جـــائزة عبـــد العزيـــز ســـعود البـــابطين،١٩٩٥م،ج١،ص٥٦ و خليـــل بـــرويني، ١٣٨٥ش، ص٤٣-٤٥ و حـــاج كـــاظمي، ١٣٧٦هـــ.ش،ص١١٧).

و من كلّ ذلك يتبيّن أنّ مردّ هذه الكلمة و منشأها هذه النزعة الطبيعية عند الرومانسيين.

خلفية البحث

إنّ فكرة هذا الموضوع ترجع إلى زمان تعرّفنا على قصائد أبي القاسم الشابي،حيث شاهدنا أنّ للغاب فيها نصيباً أوفى و أفر ؛ ثمّ التعرّف على قصيدة «المواكب» لجبران خليل جبران،إذ إنّ

Archive of SID

www.SID.ir

الغاب في هذه القصيدة قد اكتسب معاني فلسفيةً عميقةً و صوراً و أشكالاً جديدةً .فلم يمض زمن طويل حتى تطرّقنا إلى قصائد أخرى لمعاصريهما الرومانسيين فرأينا أنّ بعضهم قد استخدموا هذا اللفظ و أكسبوه أيضاً معاني جديدة ؛ فأحسسنا أن لكلمة الغاب في شعر هؤلاء معنى و لونا مختلفين عمّا كان سائداً في القصائد العربية آنذاك يجدر بنا أن ندرسها من الزوايا المختلفة. و لكن لا علينا ههنا أن نشير إلى أن هناك كثيراً من الدارسين الإيرانيين و العرب الذين درجوا على الحديث عن الطبيعة في الشعر العربي عامة و الشعر الرومانسي خاصة في مجموعة من الكتب و البحوث و المقالات .منهم الدكتور خليل برويني الذي تناول هذا الموضوع في مقالة تحت عنوان «نگاهي به طبيعت در آثار جبران خليل جبران»(نظرة إلى الطبيعة في آثار جبران خليل جبران) و ذلك بالعدد التاسع عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة الشهيد باهنر –كرمان (بهار ١٣٨٥ش) و الدكتورسيد نوفل في كتاب «شعر الطبيعة في الادب العربي » والدكتور رشدي علي حسين في كتاب «شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني» و جميلة شحادة الخوري في رسالتها «الطبيعة في الشعر الأندلسي» و أخيراً الدكتور احسان عباس في كتابه «الشعر العربي في المهجر». بيد أنّ هذه البحوث كلها تبنّت الدراسة في الطبيعة كلياً و لم تقتصر على الغاب كعنصر فريد من عناصر الطبيعة، بل لم تنظر إليه نظرة فلسفية، اللهم إلا الدكتور احسان عباس، فنراه في كتابه المذكور أعلاه يتناول هذا الموضوع بالبحث و المناقشة فلسفياً و لكنّه قد اقتصر على الشاعرين «جبران خليل جبران و إيليا أبي ماضي» و على البحث عن الثنائيّة و تحطيمها بالغاب لدى جبران، متوخّياً طريق الايجاز و الاختصار؛ فهو لم يتحدّث عن الشعراء الآخرين في هذا الميدان، أمثال أبي القاسم الشابي_ و هو أبرزهم في هذا المجال حيث لايكاد ديوانُه يخلو من هذه الكلمة _ و ميخائيل نعيمة و عبد الرحمن البياتي –الذي كان شاعراً رومانسياً في بداية حياته– و إلياس فرحات و أحمد زكي أبي شادي كما أنه لم يتحدّث عن مردّ هذه الكلمة و منشأها؛ فهذا كلّه دفعَنا إلى أن ندرس هذا الموضوع من زوايا مختلفة دراسة جديدةً نطرح فيها بعض تساؤلات و نقدّم فيها بعض وجهات النظر المختلفة لتكون حافزاً على مزيد من الدراسة في هذا المجال.

Archive of SID

www.SID.ir

الف– ظاهرة الغاب في شعر جبران خليل جبران

لاحظنا في المقدمة أنّ الأدباء و الشعراء بعدما تأثروا بالحركة الرومانسية، مالوا إلى الطبيعة – شأن الرومانسيين– فشغفوا بها و تحدّثوا عنها و عن مظاهرها؛ فهناك من اتخذوا الغاب رمـــزاً لنزعتهم الطبيعية و توصّلوا إلى جعله مقياساً للكمال الانساني و طلبوا إلى الإنسان أن يكـــون مثله، إذا أراد أن يخلص من القيود المصطنعة للمجتمع الذي تمنع الانطلاقَ فيـــه العـــاداتُ و التقاليد و إذا أراد أن يكون انساناً صحيحاًب مشاعره، كاملاً في اخلاقه. فهذا **جبران خليل جبران**، فنراه يتكلّم عن الغاب بكثرة و لاسيما في قصيدة **«المواكب»**، فلو ألقينا نظرة عابرة في قصيدته هذه، رأيناه يتّخذ الغاب أحياناً وسيلةً لتحطيم الثنائية و رمزاً للحياة المطلقة اللامحدودة و احياناً أخرى رمزاً للرجوع إلى البساطة البدائية للحياة.

لقد اقتدى جبران في نزعته الطبيعية بالمثالية الفلاطونية منذ بداية عهده بالكتابـــة؛ أي أن العدالة الحقيقية وحدها تساعد على تحقيق الفرد الكامل في المجتمع الكامل . فرأى جـــبران أن العدالة الحقيقية تفترض الحرية و الحبّ أي العودة إلى الطبيعة التي هي ينبوع الحبّ و الطهر و الحرية و الخير و العدل ؛فأهاب بالإنسان أن يقتدي بالطير و الحيوان و النبـــات لكـــي يحيـــا مطمئناً، لأنّ للطير شرفاً ليس للإنسان. فالإنسان يعيش في ظلال شرائع و تقاليـــد ابتـــدعها لنفسه، أمّا الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلّي .فكل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته و من طبيعة ناموسه، يستمدّ المجد الحرية و أفراحها .أما البشر فمحرومون من هذه النعمـــة، لأنهـــم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة و سنّوا لأجسادهم و نفوسهم قانونـــاً واحـــداً قاسياً و أقاموا لميولهم و لمواطنهم سجناً ضيقاً مخيفاً؛ (جبر، ١٩٨٣،ص١٧٣).

و لهذا نرى جبران و لاسيّما في «المواكب»، يدعو دعوةً مؤثرة للعودة إلى الغاب؛ للانعتاق من الثنائية التي شطرت الوجودَ كلّه إلى خير و شرّ و نور و ظلام و ايمان و كفر و سرور و حزن و سيادة و عبودية و عدل و ظلم و قوة و ضعف، و الانطلاق نحو الحقيقه الأزلية و هي أن ليس هناك شئٌ من الثنوية، بل هنالك وحدةٌ شاملة، الإنسان فيها إنسان دون أن ينطـــوي على صفات متناقضة، و مسمّيات مزوّرة.

و تتمثّل هذه الوحدة على أتمّها فيما يسمّيه جبران «الغاب» .ففي الـــذهاب إلى الغـــاب خلاصٌ من الثنوية و انطلاقٌ إلى اللامحدود و معانقةٌ للمطلق، متمثّلة كلّها في تلـــك الفرحـــة «الرعوية» التي تصاحبها نغمات الناي، تلك النغمات التي تتجسّد فيها الوحدة الكونية كلّها .

Archive of SID

www.SID.ir

وحول موكب المنعتقين المتحررين، ترتفع نغمات الناي، أو موسيقى الطبيعة البكر، التي تتقمّص في ذاتها الكاملة كل كمال (عباس و نجم، ١٩٨٢م، ص٤١-٤٢)

أعطني الناي و غنِّ..... فالغنا يمحو المحنْ

و أنين الناي يبقى..... بعد أن يفنى الزمنْ (المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص ٤١٨)

ففتى الغاب، الإنسان الفطري النقي الذي لم يفسده المجتمع،يحيا في الغاب هانئاً مطمئنا إلى غده في جوّ من الحبّ الدائم و الصفاء و الصحة المعنوية و الحرية الكاملة :

ليس في الغابات حزنٌ..... لا و لا فيها الهمومْ

فإذا... هبّ... نسيمٌ..... لم تجيءْ معه السمومْ

ليس في الغابات عدلٌ..... لا و لا فيها الرقيبْ

في هذا الجو البكر يتنشّق المرءُ النسيم العذب و يصغي إلى حوار الطيور، يستحمّ بعطر و يتنشّق بنور، ثمّ يشرب الفجر خمراً في كؤوس من أثير و يسبّح الله المتجلي في آيات الجمال .

هل تحمّمتَ بعطرٍ..... و تنشّقت بنورْ

و شربت الفجر خمراً..... في كؤُوس من أثيرْ

في الطبيعة عدل و مساواة و عفوية و براءة .هي تخلو من المداهنة و الرياء و الفساد لا حرّ فيها و لا عبد و لاغني و لا فقير؛ (جبر، ١٩٨٣،ص١٧٤) كما أنّ فيها إيمانها و صلاتها و معتقداتها. و في هذا يقول جبران:

صلّوا صلاة الطبيعة

لايسعني أن أعلّمكم صلاةَ البحار و الغاب و الجبال،

ففي قلوبكم أنتم تجدونها، يا أبناء الجبال و الغاب و البحار (قمير،١٩٩٧م،ص٤٧٠)

و الغاب رمز الطبيعة و مسرح اللذات البريئة يحلو للفتي أن ينعم بها و يحيا اللحظة العابرة ذاهلاً عن أمسه و غده في سكرة روحية مستنفذة .(جميل جبر، ص ١٧٤)

ليس في الغابات عدلٌ..... لا و لا فيها العقابْ

ليس في الغابات حرٌّ..... لا و لا العبد الدميمْ

(المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص٤١٩- ٤٢٠)

و لكن جبران فيما يدعو إلى الغاب، يثور على المجتمع عبر المادّة و الضلال و الشر؛ فأقاصيصه حُفلت بالنقمة على الظلم المتمثّل؛ إمّا بإقطائي جاهل يستبدّ بالشعب و إمّا بإمرأة

Archive of SID

www.SID.ir

بائسة زُوّجت رغم إرادتها، فجرّت أيامها في بيت ضريح.و في مقالاته النقدية نـــداءُ تحـــرّر اجتماعي و سياسي و صرخةٌ إلى العدالة و المساواة ؛لاسيّما مساواةُ المرأة بالرجل لأنّ الطبيعة لاتفرق بين ذكر و أنثى .إنه لايقول بنظام خاص يحلّ محلّ الأنظمة الفاسدة التي ثار عليها بـــل يدعو إلى حريّة مطلقة، إلى البساطة البدائية، إلى الفطرة كما هي الحال في الطبيعة .

و دعا رسو في ‹هيلويز الجديدة› قبل جبران، إلى حياة البساطة في كنف الطبيعة لكنـــه لم يَدعُ إلى بدائية شرعة الغاب، بل حاول في ‹العقد الاجتماعي › أن يحدّد حقوق الانـــسان و واجباته و ينشئ تشريعاً يؤكد حقوق القلب على العقل و يمجّد العلاقات العفوية بين الخالق و الخليقة بواسطة الطبيعة .لأنّ كل ما يخرج من يد الخالق خيرٌ تفسده أيدي البشر.أمّا جبران فهو لايعني بأي تشريع؛ لأنّ للطبيعة نواميسها و فصولها و نظمها و يكفي الإنسان أن يأتلف معها كما قال كنفشيوس لبلوغ السعادة . ولعله تأثّر بالنظرة الطاوية في العودة إلى الطبيعة البدائية و نبذ الشرائع و التقاليد لأن الطاو،الطريق إلى الحق، بل الحق عينه، بل الروح الكلي، بل الكائن الأعظم ينظم كل شأن كما ينظم فصول الـــسنة و دورة الأفـــلاك (جـــبر، ١٩٨٣م،ص١٧٥ و مرزوق، تطور النقد و التفكر الأبي الحديث، ١٩٨٣م،ص ٢٥٨- ٢٥٩)

و لكن يجب ألّا نصدّق حرفيّة قول جبران في هذه التخيلات الحلوليّة، إذ لو لم نُفرّق بـــين هذه الأمور الثنائية من خير و شرّ و ايمان و كفر و عدل و ظلم و ...، فنتسائل جبران فمـــا هي قيمة العمل الصالح و الخير و العدل و... ؟ ألا يُقدَّر الخير و يُعرَف بضدّه الشرّ؟ ألـــيس فرقٌ بين من يعدل في الناس و من يعدل عن الله و يظلمهم؟ و لو أغنى الغـــاب و قاموســـه الإنسانَ عن الدين و الشريعة و المقاييس الموضوعة كما ذهب إليه جبران فبِمَ يستنير البشر في طريق هَدْيه ؟بينما جاء الرسل و النبيّون بالدين و الشرائع الإلهية هدايةً للناس و نقرأ أيـــضاً في الآي القرآنية: ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ و نتسائله أيضاً لو لم تكن الـــشرائع و القوانين، فكيف يأمن المؤمنُ من المجرم؟ أليس الغاب مسرحاً للصراع من أجل بقاء الأفضل؟

و سؤال آخر، « و كيف في هذه الطبيعة الخيالية يُؤاخي الذئب الغنم و الهرّ الفأر و الثعلب الديك و كيف تنمو البنفسجة في ظلّ السنديانة ؟ أهو وجد الطبيعة تطوّرت إلى حدّ صارت فيه على مثال الملكوت الموعود أو الجنّة المسحورة أم انه عمل برأي نيتشه وجد في الطبيعة خير مسرح للصراع من أجل بقاء الأفضل؟»(جبر، ١٩٨٣م، ص١٧٥-١٧٦)

Archive of SID

www.SID.ir

و هذه الأسئلة كلّها مع ما أَظهرَ جبران في نهاية« المواكب » من إخفاقٍ و يأسٍ من تحقيق ذلك الغاب المثاليّ تُفصح عن أنّ الغاب كان لديه فلسفة طارئة اقتضتها نفسُ الشاعر و تخيلاته الحلولية.

و لكن نوافقه و نجاريه و ننضمّ إلى مواكبه في دعوته إلى الغاب، لو قصد بهذه الدعوة، دعوةً إلى بساطة النفس الإنسانية و نقصد بهذه البساطة، ذلك العهد من الصدق الذي يُولَد مع الإنسان و الذي يحياه فترة من عمره ثمّ لاتلبث الحياة المعقّدة الملتوية أن تُخفيه و تصمته تحت أكداس من ريائها و كذبها أو لو قصد بها دعوةً إلى بساطة الحياة كما تبيّنت من قبل.

و إذا تركنا هذا و نرجع مرةً أخرى إلى ‹المواكب› نرى أنّ جبران يربط بين الغاب و تحطيم الثنائية ربطاً محكماً و يتأتّى لتصويره عن طريق التجريد، حتى جعل منه يوتوبيا[1] يتحقق فيها الخلود أو صورة للمطلق و اللامحدود.

و لم تكن مشكلة جبران في أن الثنائية لم تمت، بل كانت المشكلة الحقيقية في أنّ الغاب الذي صبر على نموّه، عاد في النهاية يتحطّم من بعض جوانبه، و يتضائل في بعضها الآخر. بعد كل ما رأيناه من تجريد، أراد جبران أن يحدّد الغاب و طبيعة الحياة فيه، فإذا هذا المطلق اللامحدود، ينحصر في حدود صغيرة، في ‹ضيعة› من لبنان، في منظر طبيعي واحد، و إذا الغاب نقيض القصور، مليء بالسواقي و الصخور، يضحك فيه الفجر، و تتدلى العناقيد من أعنابه، و يصلح العشب فيه فراشاً، و الفضاء لحافاً، و إذا الغاب المجرد هو الطبيعة الجميلة:

هل تخذتَ الغاب مثلي .....منزلاً..دون...القصورْ
فتتبّعتَ... السواقي..... و تسلّقتَ الصخورْ
هل...تحمّمتَ... بعطرٍ..... و تنشّقت.....بنورْ
و شربت الفجر خمراً..... في كؤُوس من اثيرْ
هل جلست العصر مثلي.....بين جفنات العنبْ
و العناقيد.....تدلتْ.....كثريات.....الذهبْ
هل فرشتَ العشب ليلاً..... و تلحفتَ... الفضا
زاهداً...في ما سيأْتي..... ناسياً ما قد مضى

و هذا الغاب هو الملاذ الوحيد، في عالم كثير الزحام و الجدل و الضجيج:

Archive of SID

www.SID.ir

ليت شعري اي نفعٍ.....في اجتماع و زحامْ
و جدالٍ و ضجيجٍ.....و احتجاجٍ و خصامْ
كلها... انفاق...خُلدٍ.....و خيوط العنكبوتْ
فالذي...يحيا بعجزٍ.....فهو في بطءٍ يمـــوتْ

(المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ص٤٢٥-٤٢٦)

و هكذا يتضح لنا من هذه النهاية، أن الغاب عند جبران، هو تلك الطبيعـــة الـــتي كـــان يقدّسها وردزورث و كولردج و بليك و روسّو و ثورو،و لذلك نرى أن الحقيقة تَنبَهم أمـــام نسيب عريضة، حين يقول في مقدمة ‹المواكب›: «و لا بدّ لي من القول استدراكاً، بأنّ جبران في مواكبه لا يقصد دعوة الناس للرجوع إلى الطبيعة، كما فعل مفكّرو القرن الثامن عـــشر في فرنسا و انكلترا، بل دعوته إنما هي للرجوع إلى بساطة الحياة، فالطبيعة موجودة في المدينـــة، وجدانها في كل مكان سواها، و المظاهر المدنية كلها، ما هي إلا جزء من الطبيعة، فلا نستطيع إذن أن ننكر أنها مظاهر طبيعية، و إن تكن اليوم في حالة أقـــرب إلى التـــشويش و الغـــش و الالتباس»(المواكب،١٩٢٣،ص١٠ بالنقل عن احسان عباس و محمد يوسف نجم، ١٩٨٢م، ص٧٢-٧٣) و نقول، إنّ وجه اللبس هنا أن ليس بين الطبيعة التي دعا إليها رومانسيو فرنسا و انجلترا و المانيا، و بين بساطة الحياة أيّ فرق. و إذا عادت المدينة و نضت عنها أقنعةُ الغشّ و أثواب التشويش، فمعنى ذلك أنها عادت جزءاً من الطبيعة، و ما الغاب عند جبران و عند الرومانسيين عامة إلا الثورة على ما حدث في المدينة من تشويش و غش و خداع. و لكن عودة المدينة إلى ســـابق حالها أمر يكاد يكون مستحيلاً، و من هنا تغنى جبران في آخـــر «المواكـــب» بالـــسواقي و الصخور و الاستحمام بالعطر و التنشّف بالنور، و تغزل بالدوالى و العشب و الانطلاق.

و لكن جبران بعد ما منح الغاب قواماً فلسفياً مثالياً، عاد فأعلن في آخر «المواكب» يأسه من تحقيقه حين قال:

العيشُ في الغاب و الأيام لو نُظمت..... في قَبضتي لغدت في الغاب تنتشر
لكن هو الدهرُ في نفسي له أَربٌ..... فكلما رمتُ غاباً قامَ يعتذرُ
و للتقاديـــر سبـــلٌ لا تـــغيرها .....و الناس في عجزهم عن قصدهم قصروا

(مؤيد شيرازي،١٣٧٩هـــ.ش،ص٩٩)

Archive of SID

www.SID.ir

و هذه الأبيات، و هي من أصدق ما جاء في «المواكب» تدلّ على بعد المسافة بين الواقع و الخيال؛ و تنتهي بإعلان العجز الانساني و الإيمان بالجبر، و هي رمز انخفاض شديد، بعد ذلك التحليق الذي بلغ به خيالُ جبران قرصَ الشمس و كاد يحترق. و المتعمق لدراسة «المواكب» ينتهي منها إلى أن جبران، في تطرفه الشديد، لم يكن يستطيع أن يظل مستمسكاً بفلسفته في الغاب، و بدلاً من أن يدعو الانسان إلى الغاب، حيث الحبّ و الجمال و الخير؛ حطمّ الإنسان، و نفى من الغاب هذه المعاني في شكلها الانساني الواضح البسيط،و حين شاء أن يحطمّ الانسان، قضى على الغاب، و إذا به في النهاية يُحسّ بالاخفاق، و يتلمظ بمرارة العجز فلا يسيغها، و يضطرّ إلى أن يعترف بالمقادير و خطوطها التي لا يتعداها أحد. و إذا كانت هناك حواجز و خطوط تقف بالانسان، بل تقف بذي النفس الجميلة دون العودة إلى الغاب، فلم كلُّ هذه الثورة منذ البدء؟(عباس و نجم، ١٩٨٢م،ص٧١-٧٤)

هذا فإنّ جبران اتفق في المواكب مع أبي العلاء المعرّي حول تأصّل الشرّ في الناس« لا يفنى و إن قبروا» . و إذا قرأنا أبا العلاء نجد أنّ الشر في الطبع متلَد و أنه في الإنس مبثوث و أنه طبع الأنام .ثم إنّ تشاؤمية أبي العلاء أبقته على الثنائية، في حين تُوصِّلُ جبران إلى الأحدية فجعل الخيرَ و الحنينَ إلى الأبدية أو إلى الذات الجبارة و الشرَّ أو الجريمةَ وحدةً متماسكة تتحمل الارادة الكلية فينا مسؤليتها.(أبو فاضل،٢٠٠٤م،ص٤٣-٤٤)

و خلاصة ما هنالك أن الغاب عند جبران، هو العالم المطلوب الذي فيه الحرية و العدالة و السعادة و الفضيلة و غرض الإنسان المنشود الذي فقد فَقَدَهُ بالابتعاد عن الحياة الطبيعية.(ساباد يارد، ١٣٧١هـ.ش،ص١٥ و جبر، ١٩٨٣م،ص١٧٣،١٥٦-١٧٥).

و قد أصبح الغاب بعد «المواكب» رمزاً عاماً للطبيعة في نفوس الرومانسيين ولاسيما المهجريين و إن تفاوتت صورته في آثارهم . فبعضٌ لم يتعمّقوا في معنى الغاب و لم يحاولوا أن يُفلسفوا نظرتَهم إليه، فظلّت الطبيعة في أشعارهم هي الروض بما فيها مِن ساقية و زهر و ريح و و شجرة و بعضٌ آخرون تأثّروا بفكرة الغاب لجبران و رموزه فنظروا إلى الغاب نظرةً فلسفية و جاءت أشعارهم تعبيراً حيّاً عن نزعتهم الفلسفية و تجربتهم الشعورية نحو الطبيعة.

Archive of SID

www.SID.ir

ب- ظاهرة الغاب في شعر أبي القاسم الشابي:

و من هؤلاء الشعراء **أبو القاسم الشابي**، الذي للغاب في شعره نصيب أوفى و هو من الشعراء الذين تحدّثوا عن الغاب كثيراً، حيث لايكاد يخلو شعرُه من هذه الكلمة ؛فهو ألف الغابَ ألفةً روحية و ركن إلى أحضانه و استشعر حنانَه و سَبّح بجماله و روعته و ناجاه كحبيبة جميلة أو أمّ حانية يلتمسُ العزاء لديه ؛فنظر في طبيعته الرائعة و تحدّث معه، ثمّ وصف ما نظر و سمع أو أحسّ، فأصبح الغاب أليفه و أنيسه في كلّ لحظاته الروحية السامية، حيث أنشده أعذبَ أغانيه و أرقَّ قصائده معبِّرةً عن مشاعره و أحاسيسه الصادقة.

ولكن ما هي العوامل التي سبّبت هذه النزعة الطبيعية في الشابي نحو الغاب ؟و بما يرمز حديثُهُ عن الغاب ؟

لو أمعنّا النظر في ديوان أبي القاسم الشابي، لرأينا أنّ مكوّنات هذه النزعة تتمثّل في عوامل مختلفة .منها جهلُ شعبه الذي أزعجه و جَعَله أن يلوذ بالغاب و فيه يقول مخاطباً شعبه :

أنتَ روحٌ غبيــة تكــرهُ النــو ر و تقضي الدهــورَفى ليــل مَلــسِ...
فى صباح الحياة ضَمّختُ أكــوا بــــى و أتــرعــتُها بــخمرةِ نفسي
ثــم قدّمتــُها إليــک فأهرقــــ ــت رحيقى و دُستُ يا شعبُ كأسي...
ثــم ألبستــَني مــن الحزنِ ثوباً و بشــوك الجــبال تــوّجتَ رأســي

(ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص١٤٩-١٥٠)

و من ثمّ بعد أن ييأس من هذا الشعب الجاهل، يُفضّل العيش في الغاب على البقاء فــيهم عندما يقول:

إنني ذاهبٌ إلى الغاب يا شعبــ ــي لأقضي الحياةَ وحــدي بيأس
إنني ذاهبٌ إلى الغاب، عليّ في صميم اللغابات أدفن بؤسي

(نفس المأخذ، ص١٥٠)

لأنّ الغاب مكان للخلاص عن الأذى و الحزن:

فاخلع مُسُوحَ الحزن تحــت ظلالــه و الــبس رداءَ الــشعر و الأحــلام

(نفس المأخذ، ص٢٤٢)

Archive of SID

www.SID.ir

و لأنّ الغاب يَعرِف معنى الحياة و قدرَ الشاعر و مكانته؛ فيحِقُّ للشاعر أن يُنشد الطيورَ شعرَه لا الناسَ و يُجاريها و يتناغم معها :

سوف أتلُو على الطيور أناشيـ ـدي و أفضي لها بأشواق نفسي
فهى تَدري معنى الحياة و تدري أنّ مجدَ النفوس يقظةُ حسّ

(نفس المأخذ، ص١٥٠)

و في مكان آخر يَعدّ الشابّي سببَ تفضيله الحياةَ في الغاب، الفسادَ الذي قد استولى على شعبه. وكان الشابي يرى أنّ شعبه يعيش عيشَ الجماد و أن القبائح و الخبائث و الأكاذيب و الرزائل الأخرى قد جعلت فضاء الحياة عَفِنةً ؛ فلا سبيل للخلاص إلّا اللجوء إلى الغاب و طبيعته النقيّة:

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـ ـيا سعيداً بوحدتي و انفرادي
أصرف العمر فى الجبال و في الغا بات بين الصنوبر الميّاد...
و أغّني مع البلابل في الغا ب و أُصغي إلى خرير الوادى...
لا أعنّي نفسي بأحزان شعبي فهو حيٌّ يعيش عيشَ الجماد...
فهو من معدن السخافة و الإ فك و من ذلک الهُراء العادي

(ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص١٦٥)

و لهذا نرى الشابّي يربط بين الغاب و بين نفسيته و تجربته الشعورية «و يتابع شعراءَ المهجر في محاولتهم الإمعان في الهروب من المدينة و من واقع الحياة الأليم و من دنيا الحقائق المجردة إلى الغاب، حيث الطبيعة تتجلى في أبهى مظاهرها .

ماذا أودُّ من المدينة و هي لا تعنو لغير الظالم الشرير»

(هدّارة، ١٩٩٤م،ص١٣٣ و جحا، ١٩٩٩م،ص٦٢)

و مما لاشك أنّ هذه الرحلة إلى الغاب و الطبيعة لا تعني الفرار من البشرية و الابتعاد عن المسؤولية و أعباءها، بل بناءاً على المذهب الرومانسي، لو انزوى الفنّان في المجتمع بسبب ضغط القوانين أو الموهومات و الخرافات و جهل الناس و اختفت قُواه الذاتيةُ، فيَحِقُّ له أن يُعِدّ لنفسه مجالاً أكثر ملائمةً لنُشوءه و ترعرع قُواه الذاتية (سيد حسيني، ١٣٧٦هـ.ش، ص١٨٠).

Archive of SID

www.SID.ir

فوجد الشابّي هذه البيئةَ و المجال في الغاب؛ إذ إنّ في الغاب تحطّمَ كلِّ القيود الحضارية و المدنية و يتهيأُ للانسان أن يعيش في جوّ آمن و مطمئن.

و من أسباب تفضيل الغاب على البقاء في المدينة كما يظهر في أشعار الشابي هو أنّ الغاب كان في نظرته دنيا الخيال و الرؤى و التفكير و الأحلام :

في الغاب دنيا للخيـــال و للـــرؤى و الـــشعر و الـــتفكير و الأحـــلامِ

(ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص٢٤٠)

كان الشابي غارقاً في الغاب و طبيعته الخلاّبة فيرى فيه ما يرى في نفسه من فرح أو ترح. فيصبح الغاب أحياناً معبِّراً عن مشاعره و أحاسيسه .كما يرنو زماناً إلى الأفق و يشاهد فيـــه تلك الكآبة التي تنشّبت في قلبه .

و جلستُ تحتَ السنديانة واجماً أرنـــو إلى الأفق الكئيب أمامي

(نفس المأخذ، ص٢٤١)

و نرى أوج هذه النزعة الطبيعية في تقديس الشاعر الغابَ و تمجيده و فيه يقول :

المعـــبد الحيّ المقدس ههـــنا يـــا كـــاهن الأحزان و الآلامِ

(ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص٢٤١)

و لهذا نراه يعتبر الغابَ حَرَمَ الطبيعة و الجمال السامي:

في الغاب، في الغاب الحبيب، و إنّه حَـــرَم الطبيعـــة و الجمـــال الـــسامي

(نفس المأخذ، ص٢٤١)

و نحن نلاحظ هذا التقديس للغاب أيضاً في شعر بعضٍ آخر غير الشعراء العرب؛كمـــا أنّ **بوشكين** ــ و هو شاعرٌ روسيٌ من شعراء القرن التاسع عشر ــيقول:

«و عندما نظرتُ إلى شجرة البلوط المنفردة

أم الغاب و قدسيّتها

أدركتُ أنّها استقامت في أيام أبي» (العشماوي، ص١٦٧)

هذا و إنّ ما يسترعي انتباهنا ههنا، هو أنّ هذه النزعة الطبيعية و الرحلـــة إلى الغـــاب و التحدث عنه في شعر الشابي تكشف لنا عن تأثره بالمدرسة الرومانسية و خاصة شعراء المهجر. و لكن يظهر في أشعاره و لاسيما في قصائد «أغنية الرعاة» و «في ظلّ الغاب» و إرادة الحياة»

Archive of SID

www.SID.ir

أنّ تأثّره بجبران خليل جبران و آراءه كان أكثر (خفاجي، الأدب العربي الحديث، ص١٤٩ و ديوان ابى القاسم ص ١٢-١٣ و مؤسسة جائزة الباطين، ١٣٧٩هـ.ش، ص١٣٤).

و مما جاء في الحديث عن الغاب في شعره، نستنتج أنّ الغاب في شعره رمزٌ لبساطة الحياة أو نفس الحياة الريفية الواقعية، حيث يجب على الإنسان أن يُخلّص نفسه من كلّ القيود و الأكبل المدنية و الحضارية و أن يختار لنفسه حياة ريفية .

و لعلّ الغاب رمز النفس الطاهرة للشابّي (ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص٣٦-٣٧). إذ إنّ عودة المدينة إلى سابق أحوالها تكاد تستحيل و من جهة أخرى أنّ الرمز و الرمزية من سمات الرومانسية و خصائصها.

و لو سألنا الشابّي فلِم لم يَختر الغاب لنفسه للعيش فيه؟ لأجابنا في قصيدة «قيود الأحلام» بعد أن يُظهر لنا ودّه للعيش في الغاب، أنّ ما حالَ بينه و بين العيش في الغاب هو أمُّهُ و حنانها و صغار إخوانه، فيرى نفسَهُ مكبّلاً في السلاسل.

و أودّ أن أحيا بفكرة شاعر ... فأرى الوجودَ يضيق عن أحلامي
إلّا إذا قطّعتُ أسبابي مع الـ ... ـدنيا و عشتُ لوحدتي و ظلامي
في الغاب في الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة و الجمال السامي ...
لكنني لا أستطيع فإنّ لي ... أُمّاً يصدّ حنانُها أوهامي
و صغار إخوان يرون سلامهم ... في الكائنات معلّقا بسلامي ...
فأنا المكبّلُ في سلاسلَ حيّةٍ ... ضحّيتُ مِن رأفي بها أحلامي
و أنا الذي سكن المدينة مُكرَهاً ... و مشى إلى الآتي بقلبٍ دام

(ديوان ابى القاسم ١٩٩٦م، ص١٦٦)

هذا و إننا نرى أنّ هذه البساطة و السهولة و هذه النزعة الطبيعية أيضاً في شاكلة شعر الشابي، في ألفاظه و نظام قصائده ؛حيث إنّ أشعاره خالية عن المفردات الباهرة و البرّاقة و يتكلم الشاعر بسهولة اللغة و البساطة. «و في قصيدة «من أغاني الرعاة » يُقسّم الشاعر قصيدته هذه إلى عشرة مقاطع، ثمّ يقسّم كلّ مقطع إلى أربعة أبيات مشبّهة بالفصول الأربعة و بالحرف الروي المختلف ليَدُلّ على اختلاف المشاهد الطبيعية و يستخدم أيضاً بحر الرمل المجزوء الذي يشبه بالحياة الرعويّة و الريفيّة.»(الخطراوي، jaz/aug/19/ar3.htm (http://www. suhuf.net.sa/2000

Archive of SID

www.SID.ir

ج- ظاهرة الغاب في شعر إيليّا أبي ماضي:

نترك الشابي و نتناول شاعراً رومانسياً حالماً آخر ،هو **إيليّا أبو ماضي** الذي أحبّ الطبيعة فغنّاها أجملَ شعره و رأى في هدوئها و روعتها ما تقرّ به نفسُه. ،أعجبته في بساطتها و جمالها و بُعدها عن أدران الحياة و أكدارها ،فكان ينشد الراحة بين أفيائها ، و الهدوء بين مناظرها، فألهمته صوراً رائعة و أخيلة مجنّحة و معاني خلّاقة تسمو بالإنسان إلى مراتب السُّموّ والجلال ،و هو يتناولها من وجوه شتّى فيصف روائها ،و يصف مناجاة الحياة فيها ،و يستخلص منها العبر و العظات (خليل برهومي ،١٩٩٣م،ص٦٤). و إذا تطرّقنا إلى ديوانه رأينا أنّه في فترة من فترات حياته يتّخذ الطبيعة مثل بقية الرومانسيين ،مقياساً للكمال الإنساني و يجعل هذا الاتجاه دَيدناً و ديناً لنفسه. و نظنّ أنه فعل ذلك فيما يمكن أن نسمّيه عهد القلب .ففي ذلك العهد ،جعل الغاب شبيهاً بعالم المثل الأفلاطونية و عدّه مثابة للخير و الحبّ و الجمال و التضحية، و نَصَحَ الانسان أن يتشبّه بالطبيعة في صورها العديدة ، من تراب و نمر و غدير و نجم ، و على الجملة نبذ دين الانسان الذي يمنّ و يزهو إذا قدّم لقمة لجائع:

تتلمذتُ للانسان في الدهر حقبةً فلقنني غيّاً و علّمني جهلاً
نهاني عن قتل النفوس و عندما رأى غرّةً مني تعلّم بي القتلا
و ذمّ إلى الرِّقّ ثمّ استرقّني و صوّر ظلماً فيه تمجيده عدلا

و اختار دين الطبيعة عندما رآه قائماً على الإيثار و التضحية :

و شاهدتُ كيف النهر يبذل ماءه فلا يبتغي شكراً و لايدّعي فضلاً
و كيف يزين الطل ورداً و عوسجاً و كيف يروّي العارض الوعر و السهلا
و كيف تغذّي الأرض أَلأَمَ نبتها و أقبحه شكلاً كأحسنه شكلاً
و أصبح رأيي في الحياة كرأيها و أصبحت لي دين سوى مذهبي قبلا

أصبح دينه كدين الغدير، ترتوي منه الطير و الإبل و يغتسل فيه الذئب، و أصبح دينه كدين الشهب لاتحابي مسافراً على مسافر، و كالغيث يروي الأقاحي و الشوك.

لقد أجمل وردزورث و لم يتبيّن لنا كيف تكون الطبيعة هادياً للبشر. و جاء أبو ماضي يُسهب بالتفصيل و التوضيح، و يشرح لنا كيف تعلّمنا الطبيعة الحبّ الذي يخلق المساواة بين كلّ شئ في الكون.

Archive of SID

www.SID.ir

و قد كان أبو ماضي يصرّح بأنّه وجد الحقيقة في الطبيعة ،و وجد الحياة المثالية في أن يعيش حسب الطبيعة أو الغاب و أن يعرف من خلالها الحبّ الذي لاينتظر مكافأة، كالزهرة الفوّاحة و البلبل االمترنّم:

عدَّ الكرام المحسنين و قِسهم بهما تجد هـــذين أكرم منهـــما
يا صاح خذ علم المحبة عنهما إنّي وجدت الحـــبّ علماً قيّمـــا
أَحِبِ فيغدو الكوخُ كوناً نيّرا و ابغض فيُمسي الكون سجناً مظلما

و من خلال الحبّ عرف أبو ماضي الله جلّ ثناءه:

أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي و بالحبّ قد عرفت الله

(إحسان عباس و محمد يوسف نجم ،١٩٨٢،ص٧٧-٧٩)

كما أنّ ربّ هذا الحبّ يدعوه إلى الانطلاق نحو الغاب، لكي يتمازج و حبيبته كالخمر و الماء و الكأس ،أي البلوغ إلى درجة الفناء ، الذروة القصوى في الاتّحاد ، و يكون جلبابهما النور .

تعالي إنّ ربّ الحبّ يدعونا إلى الغاب لكي يمزجنا كالماء و الخمرة و الكأس
و يغدو النور جلبابك في الغاب و جلبابي فكم نصغي إلى الناس و نعصي خالق الناس

(خفاجي ،قصّة الأدب الهجري،،١٩٨٦م ،ص٥٢٦)

و كلّ فلسفة أبي ماضي في هذه الفترة ،تدور على الحبّ و علاقته بالطبيعة أو الغاب .كما أنّ دعوته إلى الحبّ الإنساني تتمازج مع الحبّ في الطبيعة و تتعانق اللهفة إليه مع الـــدعوة إلى الغاب.

و ظلّ أبو ماضي في هذا الدور العاطفي ينادي: المحبةُ ...المحبةُ ... إنّها هي بنت الطبيعة و يمجّد الغاب و يقدّسه:

و صلاتي الذي تقولُ السواقي و غنائي صوتُ الصّبَا في الغاب

(ديوان إيليا أبو ماضي،ص١٤٩)

و يعنف الإنسان حتى استكشف نفسه تحت أضواء جديدة، هي أضواء العقل، فثار علـــى الغاب،حين وجد نفسه. و في دور العقل تحطّمت نزعته الرومانطيقية أو كادت، و ملك عليه الشك و الحيرة أقطار نفسه، فلم يعد الغاب و لا المحبة قادرين على مؤاساته. سَئِم أولاً الناس، و ما في حياتهم من تناقض و تزوير ،و خيّم الضجر على نفسه:

Archive of SID

www.SID.ir

سئمتْ نفسي الحياة مع الناس و ملّت حـــتى مـــن الأحباب
و تمشّت فيها الملالة حـــتى ضجرت من طعامهم و الشراب

و كان من الطبيعي أن يُولّي وجهَه شطر الغاب ،بذلك حدثته نفسه فأطاع رغبتـــها و في صحبتها قضى وقتاً جميلاً في الغاب في جوار الغدران و الأعشاب:

و قضينا في الغاب وقتاً جميلاً في جوار الغدران و الأعشاب
تارةً في مـــلاءة مـــن شعاع تـــارة في مـــلاءة من ضَباب

و معنى ذلك، أنّ الرجل الذي سئم الناس ،كيّف حياته حتى أصبحت كالطبيعة ، و حتى كاد يتمثّلُ مظاهرها من شعاع و نسيم و جدول .و لكنه ما لبث أن وجد نفسه تأبى الذوبان في الطبيعة بل لاتريد ذلك لأنّ الملل عاد يُساوره:

إنّما نفسي التي ملّت العمران ملّت في الغاب صَمتَ الغاب
فأنا فـــيه مستقلّ طلـــيق و كـــأنّي أَدُبُّ فـــي سرداب

و اللافت للنظر أنّ أبا ماضي بعد ما اشتدّت حيرتُه حول الحياة ،أَنتجت هذه الحيرةُ لـــه قصيدة «الطلاسم»قصيدةٌ تتحطّمُ فيها الطبيعةُ تحت مطارق الشك. فبعد أن كان الشاعر يمجّد الشهب و السحب و الغاب لخيرها ،و تحقُّقِ المساواة و المحبة في قلوبها، عاد يُحدّثنا أنّها مثله في الحيرة و الشك و الجهل:

قد رأيتُ الشهب لا تد ري لماذا تُشرقُ
و رأيتُ السحبَ لا تد ري لماذا تُغدِقُ
و رأيتُ الغاب لاتد ري لماذا تُورِقُ
فلماذا كلّها في الجهل مثلي لستُ أدري

ثمّ تسلّل الشكُّ إلى حقيقة اللذة التي كان يجدها في أحضان الطبيعة ،عندما يـــسمع غنـــاء البلابل و حفيف الأرواق و يرى الأنجم في الظلماء تبدو كالمشاغل. أهذه اللذة الـــتي يحـــسّها متأتية منها أم منه، تضائل فضل الطبيعة على الإنسان، لأنّها تحوي مثله الصريحَ و الزائف، و لا فرق بينه و بين البحر و الأرض؛ و في الكون حقيقةٌ واحدة لا غير، هي النفسُ، صورة كـــل شئ ،هي الذات الانسانية التي تجسدت الكون (إحسان عباس و محمد يوسف نجم ،١٩٨٢،ص٨١-٨٢، ٨٤- ٨٥ و خليل جحا،١٩٩٩م، ص١١٧-١١٨).

Archive of SID

www.SID.ir

و اتّضح عجز الغاب مرة أخرى حين لم يجد فيه الشاعر السعادة التي ينشدها. فقد فتش عنها طويلاً في المظاهر الطبيعية ولكن لم يجدها:

ذهب الربيعُ فلم تكن في الجدول الشادي و لا الروض الأغنِّ الممرعِ
و أتى الشتاءُ فلم تكن في غيمه الباكي و لا في رعده المتفجّعِ
و علمتُ حين العلمُ لايجدي الفتى أنّ التي ضيّعتها كانت معي

(ديوان إيليا أبو ماضي ،ص ٤٩٤)

و هكذا أثبتت الطبيعة أنها عاجزة لاتستطيع أن تمدّ الشاعر بالتعزية و النسيان أو بالسرور و المتعة أو بالسعادة و حلّت النفسُ محلَّ الغاب و أصبحت هي الصورة الكمال فيها تكمن السعادة و المتعة و الفضيلة.

و لذلك تَغيّرَ الغابُ في نظر هذه النفس و أصبحت لاتراه عالماً للكمال،كما كانت تفعل من قبل (إحسان عباس و محمد يوسف نجم ،١٩٨٢،ص٨٦-٨٧).

د- ظاهرة الغاب في شعر ميخائيل نعيمه، عبد الوهّاب البياتي، إلياس فرحات ،نسيب عريضة و ندره حداد:

أما **ميخائيل نعيمه** فهو يصوّر لنا التجاوب مع الغاب و طبيعته الخلاّبة كما يصوّر لنا صداقة الغاب و نزاهته في تحيّة أشجاره و مناجاة أطياره و مصافحة أزهاره إيّانا و في هذا يقول:

أشجارُ الغاب تُحيّينا و طيور الغاب تُناجينا
و زهورُ الغاب تُصافحنا و نُصافحها و تُهنينا

(محمد عبد المنعم خفاجي،قصّة الأدب الهجري،،١٩٨٦م ،ص٣١٢-٣١٣)

و أمّا **عبد الوهّاب البياتي**، فهو بدأ حياته شاعراً رومانسياً يفرّ من واقع الحياة إلى الطبيعة و خاصّةً في ديوانه (ملائكة و شياطين) ثم استحوذ عليه التيّار الواقعي (محمد مصطفى هدّارة ١٩٩٤م، ص٤٩). و في عهده الرومانسي يقول:

عيناك باسمتان مثل بنفسج يتفتّح
في الغاب...في الليل العميق
في معبد الحبّ السحيق
حيث السعادة لاتنام

Archive of SID

www.SID.ir

إلّا على سرر الغرام
حيث الأزهار لاتفيق
إلّا على همس الطريق(ديوان عبد الوهّاب البياتي،١٩٩٠م،ص٥٠)

و نجد هذا العبق الرومانسي في شعر **إلياس فرحات** ،حيث يصوّر الغاب ملاذاً للسعادة و مغنىً للطمأنينة و راحةً من متاعب الحياة و مأمناً من شرورها كما يقول:

أَحنُّ إلى الغاب حيث الشرور هنالك نيرانها خامدة

(محمد مصطفي هدّارة ١٩٩٤م،ص١٣٣)

و نشاهد **نسيب عريضة** فإنّه رأى في الغاب أثناء لحظة من لحظات الصراع و الشك، مجالاً للتعري أي التجرّد من الحُجب الكاذبة، و طرح التصنّع و التكلف أو بتعبير جبران «التحمم بالعطر و التنشّف بالنور»: و في ذلك يقول:

فصاحت النفسُ بي و قالت ما لى و للناس و الزحام
أُصبتِ يا نفسُ فاتّبعيني فليس كالغاب مِن مُقام
يا غابُ جئناك للتعرّي أنا و نفسي و لا حرام

بينما نرى **ندره حداد** يرى في الغاب موطناً للحبّ، بعد أن عجز عن أن يجد الحبّ بين الناس. و في قصيدة «يدعونه الحبّ» يصوّر لنا التفاوت بين عالمي الانسان و الغاب.

فتشتُ في الناس على ضائع عرفته بالسمع لا بالنظر
يدعونه الحبَّ و كم جاهل مثلي يظنّ الحبّ بين البشر
فتشتُ عنه طول عمري فلم أجد له في الناس أدنى أثر
فرُحتُ نحو الغاب حيث الظبا ترعى و حيث الطَّيرُ تعلو الشجر
فجُلتُ فيما بينها مدّةً عرفت ما قد كان عني استتر
الحبُّ في البُهم جليّاً يُرى و الحبُّ فينا لا يراه البصرُ

(إحسان عباس و محمد يوسف نجم ،١٩٨٢،ص٧٦-٧٧)

هـ- ظاهرة الغاب في شعر أحمد زكي أبي شادي:

و أخيراً نقف عند **أحمد زكي أبي شادي**ـ و هو شاعر الطبيعة- الذي عمل جاهداً على الانطلاق من الكلاسيكيّة العميقة إلى الرومانسية المجنّحة (محمود شكيب انصاري ،١٣٨٢هـ.ش

Archive of SID

www.SID.ir

،ص١٨٦) و يتّضح لنا في إحدى قصائده (الشجرة الرائدة) أنّ الغاب يصبح رمزاً لتحرّر الإنسان من كلّ قيوده و أكبله، حيث يُعلّمنا الغابُ روح الريادة و هي روح كفيلة بالحياة كما يوحي إلينا دروسَ النهوض و الخلاص و تحقير العجز .

فالشاعر يستهلّ القصيدة بسيطرة البرد و الصقيع على الغاب قائلاً: لقد أحسّ الغابُ بعد أن كانت الايام باردة نهاراً و قاسية ليلاً ، بإقبال الربيع و إذ نشأ هذا الإحساسُ واجهه شعورٌ آخر مضادّ، و هو الخوف من أن يؤدي التبدّل إلى عاقبة أوخم، فقالت كل شجرة لنفسها: لن أجرؤ على أن أكون الرائدة في الاعتراف بالربيع حتى لا تُصاب براعيمي بأذى، و راحت سنديانة عتيقة تحذر جارة لها من عقبى التسرع، فأجابتها جارتها قائلة: «أيتها السنديانة التي كثيراً ما ضربتها الرياح! ألا يبهجك مهرجانُ الحياة التي يأتي بها الربيع؟ فساد السكونُ أياماً ،ثم جاء صبح تمكنت فيه أشعة الشمس مِن مداعبة شجر الحور، فتفتّقت إحداها، ثمّ تبعتها بقية الغابة:

سيطر البرد و الصقيع على الغابة و اشتدّ عصف قاسي الرياح
لم يبال البرد الغشوم بكتر مستسر في هذه الأرواح ...
و تمشى في الغابة الحبّ و الشوق لداني الربيع و هو بعيد...
ثمّ ساد الأشجار خوف غريب من جديد يكون شرّ البديل
ربما كان مرهق اليوم تعمى حين نلقى الغد المخيف الوبيل
و مضت و هي في التياع تناجي نفسها لاتودّ مرأى الربيع
لا تودّ اعترافها بقدوم موشك قد يخونها للصقيع
و مضت سنديانة ضربتها قاسيات الرياح عمراً طويل
في حذار تقول للجارة العقبى إذا جاذفت وجود هزيل
فأجابت : ألا تسوين من موكب هذي الحياة حول الربيع
إيه يا جارتي :لقد خانك الرأي فإنّ الربيع صيف وديع ...
إنّه الخالد المجدِّد فينا حلو أعمارنا بعام و عام
فأفاض الكون حساً عجيباً بعد صمت كالسحر ران عليها ...
ثم وافى صبح تجلت به الشمس بإشعاعها حناناً لديها
داعبت في شعاعها شجر الحور فذر الصبا الزمرد عنها

Archive of SID

www.SID.ir

و استفاقت في إثرها شجرات ،فتزيت بكل مارف منـــها
ذلك سرّ **الغابة** احتضنته و هو سرّ النهوض في كل حـــيّ
ثورة للتحرر المتناهي و احتقار العجز فـــي كـــل شـــئ ...
فلنُحيِ الأشجار في الغابة الحرة و لنحي ذكرها في العظات
و لنُمجِّد روح الريادة فيـــها ، تـــلك روح كفيلة بالحياة
كم رموز ملء الوجود تناجينا و توحي لنا دروس الخلاص ... (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٨٦م ،ص٤٧٩-٤٨١)

النتيجة

توصّل هذا البحث من خلال دراسة ظاهرة الغاب في الشعر العربي الرومانسي إلى ما يلي :

١- يظهر الغاب في الشعر العربي الرومانسي، إمّا رمزاً لبساطة الحياة و إمّا رمزاً للرجـــوع إلى الحياة الطبيعية أي نفس الحياة الريفية و قد يكون وسيلةً لتحطيم الثنائية أو رمـــزاً للحيـــاة المطلقة اللامحدودة.

٢- يبدو من هذه الدراسة ، أنّ الغاب بعد قصيدة «المواكب» لجبران، قد أصبح رمزاً عامـــاً للطبيعة في نفوس الرومانسيين ولاسيّما المهجريين و إن تفاوتت صورته في آثارهم .

٣- مِن الشعراء الذين أكثروا في أشعارهم مِن التحدّث عن كلمة الغاب ،هو أبو القاسم الشابي و هذا يُفصح عن تأثّره الخاص بجبران خليل جبران ، و لكنّ الفرق بينهما هو أنّ الغاب في شعر الشابي لا يعني الحياة المطلقة اللامحدودة و لايُعتبر وسيلةً لتحطيم الثنائية كما كان هذا عند جبران؛ بل هو إمّا رمزٌ للبساطة البدائية للحياة أو مرادفٌ للرجوع إلى الحياة الطبيعية أي نفس الحياة الريفية .

٤- إنّ التكلم عن الغاب و تقديسه عند بعض الشعراء في طورٍ من أطوار حيـــاتهم الـــشعرية ،يكشف عن هذه الحقيقة أنّها فلسفة طارئةٌ، دواعيها في نفس الشاعر لأنّ الشاعر كثيراً ما ،هو خاضعٌ للحال .

٥- يبدو أنّ الهدف المشترك الذي سعى إلى نيله جميعُ الشعراء الرومانسيين من خلال الحديث عن الغاب، هو الرجوع إلى البساطة البدائية للحياة .

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر و المراجع

- ابو فاضل، ربيعة، جبران و التراث العربي، بيروت، دار المشرق، الطبعة الأولى ،٢٠٠٤م.
- ابو ماضي، ايليا: ديوان ايليا ابو ماضي، دار العودة، دون تا.
- برهومي، خليل: ايليا ابو ماضي شاعر السؤال و الجمال، بيروت، دار الكتب العالمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- برويني،خليل و جعفري، روح ا...: نگاهي به طبيعت در آثار جبران خليل جبران، نشريه دانشكدهء ادبيات و علوم انساني دانشگاه شهيد باهنر كرمان، دورهء جديد، شمارهء١٩ (پياپي ١٦)، بهار ١٣٨٥ش .
- البياتي، عبد الوهاب: ديوان عبد الوهاب، بيروت، دار العودة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م، ج ١.
- جبر، جميل:جبران في عصره و آثاره الأدبية و الفنية، بيروت، مؤسسة نوفل ش مم، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
- جبران خليل، جبران: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية، دار الجيل، دون تا.
- جحا، خليل، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الأولى، دون تا.
- حاج ابراهيمي، محمد كاظم: النقد الأدبي، اصفهان، انتشارات دانشگاه اصفهان، چاپ اول، ١٣٧٦هـ.ش.
- خفاجي، محمد عبد المنعم: الأدب العربى الحديث، مكتبة الكليات الأزهرية، الجزء الثاني، دون تا.
- ـــــــ، ـــــــ: قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٦م.
- سابا يارد، نازک: نقد و تحليلى بر مواكب قصيدهء مواكب سرودهء جبران خليل جبران، ترجمهء محمد صادق شريعت،تهران ١٣٧١هـ .ش، بي نا.
- سيد حسينى،رضا:مكتب هاى ادبى، تهران، مؤسسهء انتشارات نگاه، چاپ يازدهم، ١٣٧٦ هـ . ش.
- الشابى ، ابو القاسم: ديوان ابى القاسم (أغاني الحياة)، دراسة و تقديم: عبد اللطيف شراره، بيروت، دارصادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- شكيب انصاري، محمود: تطور الأدب العربي المعاصر، انتشارات دانشگاه شهيد چمران چاپ سوم، ١٣٨٢،ش.
- عباس، احسان و نجم، محمد يوسف: الشعر العربي في المهجر، بيروت، دار صادر، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- عبد الرزاق الأصفر: المذاهب الأدبية لدى الغرب مع ترجمات ونصوص لأبرز أعلامها، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م.
- العشماوي، محمد زكي: الرؤية المعصرة في الأب و النقد، دار النهضة العربية، دون تا.
- العيدالخطراوي، محمد: شياه محظوظات، موقع:
- (http://www. suhuf.net.sa/2000 jaz/aug/19/ar3.htm)
- قمير، يوحنا، جبران و نيتشه (النبي و زرادشت)، بيروت، نوفل، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

Archive of SID

www.SID.ir

- مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين معجم البابطين للشعراء العـــرب المعاصـــرين، الطبعـــة الأولي، ١٩٩٥م، ج١.
- مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين در نو آوري و خلاقيت شعري، گزيده اي از شـــعر عـــربي، ترجمهء ياسر جعفر و موسي بيدج، تهران، انتشارات بين المللي الهدى، ١٣٧٩ه. ش.
- مؤيد شيرازي، جعفر: جبران خليل جبران (مواكب و موزونها)، تهران، انتشارات فرزان، چـــاپ اول، ١٣٧٩ه.ش.
- مرزوق، حلمي: الرومانتيكية و الواقعية في الأدب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.
- ـــــــ، ـــــــ: تطور النقد و التفكر الأبي الحديث، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.
- هدّارة، محمد مصطفى: بحوث في الأدب العربى الحديث، بيروت، دارالنهضة العربية، ١٩٩٤م.

Archive of SID

www.SID.ir

پدیدهء غاب (جنگل یا بیشه) در شعر رومانتیک عربی

دکتر امیر مقدم متقی[١]

چکیده

پس از تأثیرپذیری شعرای عرب از مکتب رومانتیسم، ایشان به توصیف طبیعت و مظاهر آن روی آوردند و بر پایهٔ پیوندی پر احساس با طبیعت و الهام از آن، به ستایش زیبایی ها و مظاهر دلربایش پرداختند و چون مادری مهربان که در دامنش به جستجوی آرامش برخاسته باشند، با او به نجوا و گفتگو برآمدند. از همین رو،طبیعت و مظاهر آن را همچون دیگر رومانتیک ها، پناهگاهی برای سعادت بشری و مکانی برای آرامش برشمردند که انسان را بر تمامی مصائب و سختی هایش قادر می سازد.

از جملهٔ این عناصر و مظاهر طبیعت که بسیار بر زبان شعرای رومانتیک، تکرار شده است، عنصر «غاب» یا همان جنگل یا بیشه است؛ عنصری که ما آن را در اشعار ایشان، گاه وسیله ای در جهت درهم ریختن شالودهٔ ثنویّت و حرکت به سوی مطلق نامحدود می یابیم و گاه آن را نماد و سمبلی برای بازگشت به همان سادگی و بساطت زندگی اولیه؛ پیش از آن که دستخوش تغییر و تشویه و تعقید بشر قرار گیرد، می بینیم. وزمانی دیگر، غاب را رمز و نماد مکان مقدسی مشاهده می کنیم که در آن، انسان قادر می گردد بر عشق پاک دست یافته و خویشتن را از هرگونه حجاب کاذب و قید و بند انسانی رهایی بخشد.

بر همین اساس، این شعراء، عنصر غاب را معیار کمال انسانی برشمرده و از انسان می خواهند که بر شاکلهٔ آن باشد؛ تا از قید و بند های ساختگی جامعه و از عادات و رسومی که مانع آزادی او گشته، رهایی یافته و در نهایت بر تکامل اخلاقی و احساسات ناب و پاک انسانی دست یابد.

کلید واژگان: غاب (جنگل یا همان بیشه)، شعر عربی، رومانتیک

---

١ - استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت معلم آذربایجان

Archive of SID

www.SID.ir